حماية الطالحين

بحث علمي اجتماعي

للأستاذ اسماعيل مظهر

في أواسط القرن التاسع عشر أصابت العلم هزة من تلك الهزات العنيفة التي تغير مجرى الفكر ، وتقلب آيات العلم بعد أن يخيل إلى الناس أن المعرفة قد قامت على قواعدها الرسيسة ، رأساً على عقب . ففي سنة ١٨٥٩ نشر العلامة شارلز روبرت دروين كتابه « أصل الأنواع » فأقام الحجة البالغة على أن الأنواع تنشأ في الطبيعة بعضها منظور عن بعض على مر عصور متطاولة ، وأن نشوء الحياة من فوق الأرض موغل في القدم

ولقد أقام دروين نظريته على ثلاث قواعد أولية ، هي التناحر على البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وبقاء الأصلح . أما التناحر على البقاء فاصطلاح مجازي يؤدي في أوسع مدلولاته معنيين : فاما أنه يدل على العلاقة القائمة بين الأنواع الحية العائشة في بيئة ما ، إذا ما اتجهت الأسباب العاملة على بقاء نوع إلى إبادة آخر أو إفنائه ، وإما أنه يدل على الجهد الذي يبذله الأحياء في سبيل الحصول على مقومات الحياة ، كمقاومة العوامل والمؤثرات المفنية للأفراد أو المبيدة للأنواع . أما الانتخاب الطبيعي فمحصله أنه يبقى من أفراد الأنواع أو السلالات أقدرها على الحياة في بيئة ما وأن تفنى غير القادرة منها على البقاء . ولما كانت القدرة على البقاء وتخليف المثل ، انما ترجع إلى صفات حيوية تتأصل في الأحياء ، نشأ بالانتخاب الطبيعي تدريجياً على مر الأزمان سلالات وأنواع جديدة ممتازة بصفات معينة ثابتة . وقصد باصطلاح بقاء الأصلح أن الأحياء تتكاثر بنسبة رياضية . أي بنسبة ٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا ؛ فاذا لم يهلك معظم نتاجها بعوارض طبيعية ضاقت الأرض عن أن تسع الأحياء . ولذا لا يبقى من الأحياء إلا أصلحها أو أقدرها على البقاء ومقاومة العوارض . وما « بقاء الأصلح » في الواقع إلا اصطلاح يراد به إيضاح عمل الانتخاب الطبيعي المقتضي أن الأحياء التي هي أكثر صلاحية للبقاء في بيئة طبيعية تظل حية لتنتج أمثالها ، في حين يفنى غير الصالح منها

على هذه القواعد الثلاث شرع دروين مذهبه الذي غير اتجاه العلم الطبيعي برمته في أواسط القرن الماضي . أما الذين اكبوا على دراسة الاجتماعيات فقد تساءلوا : إذا كانت سنة الطبيعة الثابتة تقضي ، لخير النوع وبقائه واحتفاظه بمستوى خاص من الحيوية والقدرة على مجالدة الأعاصير والأعداء ، بأن يفنى الطالح من نتاجه وألا يبقى إلا الصالح ، فان المدنية الحديثة بما تحوط به الطالحين من أسباب الحماية من الهلاك والفناء ، إنما تقاوم سنة الطبيعة الثابتة ، تلك السنة التي تقضي بأحد أمرين : فاما هلاك يصيب الطالحين ليفوز الصالحون بتخليف النسل فيحتفظ النوع بحيويته ومثله العليا من حيث القوة والجهد ، وإما فساد يصيب طبيعة النوع بالابقاء على الطالحين الذين يورثونه كل الصفات التي يدركها الاحيائيون بين الأطلح والأصلح

ولنضرب لذلك مثلاً نقتطعه من حالاتنا الاجتماعية . فلقد استطاع الفلاح المصري أن يقاوم ثلاثة أشياء ، تسلط واحد منها على شعب غلت يد الطبيعة عن تزويده بمزايا الانتخاب الطبيعي ، كافية للقضاء عليه : فساد الحكومات ، والأمراض ، والحروب ، فلقد توالت على هذا الفلاح دورات من استبداد الحكومات منذ عهد الفراعنة إلى الآن ، لا يروى تاريخ أية أمة من الأمم لها شبيهاً . وازدياد عدد السكان في مصر الى عشرين مليوناً في عصر من العصور الى ثلاثة ملايين في عصر محمد علي ، دليل قاطع على عظم ما عانى هذا الشعب من عوامل الافناء وبرهان على ما فيه من حيوية استمدها من البيئة الطبيعية ومن حالاته المعاشية التي ظلت متروكة لحكم الطبيعة فيه الآلاف من السنين . وليس لي هنا أن أتكلم في الأمراض التي سكنت جسم هذا الفلاح منذ أقدم العصور وأخصها (البلهارسيا) وقد استدل على وجودها بالموميات المحنطة من أقدم العصور : أما الحروب فيكفي أن تعرف أن الجيش المصري حارب في خمس وأربعين وقعة تحت لواء قائدنا العظيم ابراهيم وحده في فترة لا تزيد على ثلاثين عاماً . فما بالك بالعصور التي هدمت فيها الامبراطورية المصرية ثم بنيت على أكتاف هذا الفلاح منذ ستة آلاف خلون من الأعوام ؟

هذه الظاهرة تحملنا على أن نتساءل ما هو السر الذي جعل

هذا الفلاح على ما فى أسباب حياته من عوامل الافناء يصمد لعوادى الدهر والطبيعة فلا ينقرض ولا يبيد ، بل تراه اليوم وقد خرج من معارك التناحر على البقاء منصوراً ، وعلى ضفاف نيله المقدس سبعة عشر مليوناً يفلحون أرض مصر ويتطلعون الى أسمى المثل التى أوجدها التصور الديمقراطى الحديث ؟

قد يتفق أن يقول بعض الذين لا يقوون على وصل أسلوب التفكير العلمى بأسلوب التفكير الاستقرائى إن ذلك راجع الى صفات خص بها الشعب المصرى دون غيره من شعوب الأرض التى عاصرته . وقد يكون فى هذا الكلام بعض الحق ، فان للصفات الخلقية التى تتصف بها بعض الشعوب أثرا فى ذلك . ولكن إذا نظرنا فى الأمر من الوجهة الطبيعية الصرف ألفينا أن السبب راجع الى أن هذا الشعب قد ترك للطبيعة معرضاً لعواملها خاضعاً لقوانينها الحديدية منذ أبعد العصور . وظلت الطبيعة تتولى إنساله بالانتخاب الطبيعى فتفنى غير القادر منها على البقاء ، وتبقى فى حلبتها الصالحين للبقاء ، فاستطاعت بذلك أن تحفظ على هذا الشعب قدرا من الحيوية ظل ثابتاً على مدار العصور . وقد ترى هذا الفلاح اليوم بسحنته السفعاء وجسمه النحاسى ، فما تقرأ فيه من آية إلا آية الطبيعة خطت على ملامحه الهادئة ؛ أما وداعة أخلاقه وصبره واحتماله وحدة نظراته وذكائه الموروث ، فتحملك لأول وهلة إذا ما نظرت اليه أن تقول : هو ذا ابن من أبناء الطبيعة لم يدخل فى فطرته بعد شىء من تزوير المدنية

ولا شك عندى فى أن تزوير المدنية لابد من أن يدرك فلاحنا بعد عهد قصير . فقد علت الصيحة فى هذا العصر بوجوب النظر فى ترقية الفلاح اجتماعياً . أما إذا كان الذين يصيحون هذه الصيحة لا يقصدون بها إلا أن يخرج الفلاح من تلك البيئة التى نشأ فيها الى بيئة مزورة يدعوها المدنية ، بأن نقل يد الطبيعة عن أن تدرك منه أغراضها الانتخابية ، وأن نعمل على حماية أولئك الذين كتبت عليهم الطبيعة آية الفناء بأسباب اصطناعية ، فان ذلك سوف يكون أول عهد الفلاح بفقدانه الحيوية التى استمدها من الطبيعة على مدار العصور وعلى تتالى الأحقاب . ولم أدرس بعد كيف نستطيع أن نحمى فلاحنا من مفاسد المدنية التى تقضى بابعاده عن حكم الطبيعة فيه ، وإنما أقول إن كل اصلاح اجتماعى لا يعوض على الفلاح ما سوف يسلب من فعل الطبيعة ، اصلاح هو الى الفساد أقرب شىء

ولقد بحث هذا المشكل الاجتماعى فحول من معاصرى الاجتماعيين ، وزكى بحوثهم فئة من كبار الاخصائيين فى أوروبا وأمريكا ، ولقد بان لهم بأجلى دليل أن الحماية الصطنعة التى حد بها العلم من فعل الطبيعة فى الطالحين ، أى غير القادرين على البقاء فى البيئة الطبيعية ، لولا تلك الحماية ، سبب من أكبر الأسباب التى ولدت ما يظهر على أكثر شعوب الأرض من مظاهر الهرم والضعف الحيوى ، حتى لقد لجأت المانيا وغيرها من ولايات أمريكا المتحدة والجزر البريطانية التى تعقر طبقات خاصة من المجرمين والمتوهين والفاسدين توصلا الى طريقة عملية يعوضون بها على الأحياء شيئا مما فقدت بالحماية المصطنعة من فعل الطبيعة والخضوع لسنتها الثابتة

من هذه البحوث بحث ألقاه لورد « دوسن Dawzan » فى الجمعية الطبية بمدينة يورك نشر بعنوان « الطب والتقدم الاجتماعى » تساءل فيه عما إذا كانت النزعة التى تنزع بنا الى حماية كل الأطفال الذين يولدون من قضاء الطبيعة فيهم ، مهما كانوا طالحين غير قادرين على البقاء بغير حماية فعلية ، أمراً مناقضاً لما تنشد من ارتقاء السلالات البشرية وخيرها فى مستقبل العصور . ففى خلال ستين عاما انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال من ١٥٦ فى الألف الى ٦٠ فى الألف ، ونزلت فى الأطفال الذين هم فوق الخامسة من ٦٨ الى ١٨ فى الألف ، وزاد عدد السكان فى خلال هذه (الفترة ١٨٧٠ - ١٩٣٤) خمسين فى المائة عما كان قبلا

على أننا نستطيع أن ندرس الظواهر التى تنشأ عن مثل هذه الحالات ، إذا رجعنا الى أنواع أخرى تعايشنا فى الطبيعة . فقد نرى أن الأنواع الأخرى ، غير النوع البشرى ، وغير الأنواع الداجنة التى يكثرها الانسان لأغراض له فيها ، تحتفظ بنسبة ثابتة فى الأعقاب ، أى فى تخليف النسل ، وأنه كلما أخذت نسبتها فى الزيادة العددية سلطت عليها الطبيعة عوامل تردها الى النسبة التى لا تسمح بأكثر منها ، فقد لحظ أن ازدياد عدد نوع من الأنواع يصحبه دائما ظهور أمرين : إما زيادة فى عدد الأنواع المفترسة ،

وإما ازدياد فى الأمراض . وفى هذه الحالة لا يبقى من أفراد الأنواع إلا أقدرها على البقاء وأصلحها لأعقاب نسل يرث ما فيها من صفات تمكن النوع من الاحتفاظ بذاته ، فاذا صدت الطبيعة عن أن تقضى فى نوع بحكمها هذا ، ترتب على هذا انحطاط يظهر فى أعقاب هذا النوع

والمثل على هذا عديدة ، نقتصر على ذكر مثالين منها ، فقد حدث أن حاول أهل سويسرا أن يحموا نسل حيوان يكثر فى جبالهم يدعى (الشموا) Chamois وهو فصيلة من الانعاميات Ungulata لها قيمة تجارية ، فأسروا عدداً منه فى داخل مكان متسع أحيط بكل أنواع الحماية ، وبخاصة من الذئاب التى هى أنكى أعداء هذا الحيوان . فكانت النتيجة المحتومة أن ظهر فى هذا النسل المأسور صفات انحطاطية بينة ، وكثر فيه عدد الأفراد المهزولة الضعيفة ، وبدت عليه كل علامات الانحلال الحيوى ، حتى اضطر المربون فى النهاية أن يدخلوا إلى مكان الأسر عدداً محدوداً من الذئاب المفترسة ، فوجدت هذه الذئاب فى الأفراد المنحطة فرائس يسهل اقتناصها ؛ وبعد قليل استعادت البقية الباقية كل الصفات المثالية التى يمتاز بها النوع فى مراييه الطبيعية

أما فى زيلاندا الجديدة فقد تكررت هذه الظاهرة بينها ، والمعروف أن هذه الجزر من أمثل بقاع الأرض مناخاً وطبيعة لتربية الأنعام خاصة ، وذوات الثدى عامة ، ذلك بأنها خالية من الحيوانات المفترسة خلواً تاماً . فلما أن استوطنها الايقوسيون حسن لديهم أن يدخلوا إليها عدداً من الغزال الأحمر الذى يعيش فى جبالهم العليا ، فكانت لهذا الحيوان أمثل مباءة ، فتكاثر واكتنز لحماً ، ولكن بان لهم بعد قليل من الزمن أن النوع الذى جلب من أثيوبيا مملوء حيوية ، محتفظ بأسمى الصفات التى يتسم بها فى مراييه ، قد ظهرت بينه أنواع انحرفت عن صفات النوع المثالية . فكانت أضعف بنية وأقل مقدرة على العدو ، وقد شوه منظرها الخارجى بصفات لم يكن لها من وجود فى أسلافها ، أما الدواء فكان إدخال عدد من الذئاب المفترسة القوية إلى الجزر ، كانت عدة الطبيعة فى القضاء على الطالحين من نسل هذا الحيوان ، فاستردت البقية الصالحة ، بعد فناء غيرها ، كل الصفات الحيوية التى يتصف بها النوع فى مراييه

أمام هذه الحقائق أخذ المصلحون يفكرون فى تلك الوسائل التى يحاول بها دعاة المدنية والانسانية أن يصلوا من طريقها إلى حماية كل الأطفال الذين يولدون ، أليس فى الافراط فى اللجوء إلى هذه الوسائل معاندة للطبيعة بأن نكثر من نسل أناس يتصفون بالضعف الأدبى والعقلى والطبيعى ؛ مثلنا فى ذلك مثل أولئك الذين أرادوا أن يغالبوا الطبيعة فى تربية الشموا والغزال الأحمر ؟

وحجة الذين يميلون إلى الأخذ باليول الانسانية فى مثل هذه البحوث العلمية ، أن نسبة الزيادة فى عدد السكان آخذة فى التناقص شيئاً بعد شىء ، وقد تقف عند حد خاص بعد زمن وجيز ؛ فلا سبب إذن للازعاج والتشاؤم ؛ غير أن هؤلاء انما تغيب عنهم حقيقة رئيسية ، هى أن نسبة زيادة عدد السكان إن كانت قد أخذت فى النقص ، فانه نقص معكوس الآية ، ففى منتصف القرن التاسع عشر كان التجار وأصحاب الحرف الفنية من ذوى الأسر العديدة الأفراد ، فى حين أن كبر أسرات رجال الدين كان مضرب المثل ، فاذا وعينا أن متوسط عدد أفراد الأسرة فى أمة تريد الاحتفاظ بكيانها لا ينبغى أن يقل عن أربعة أنفس ، ذاكرين أن هنالك أسراً قد تظل عقيما ، وأخرى تصاب بالشكل ، وعلمنا أن عدد الأسرة فى طبقتى الأطباء ورجال الدين لا يزيد عن اثنين ، علمنا أن اطراد النقص فى عدد السكان انما هو اطراد عكسى . ذلك بأن هذه النسبة تفيد الطبيعة من ناحيتين : الأولى اعقاب النسل بالنسبة الطبيعية ؛ والثانية عدم تزويد الطبيعة بمادة للانتخاب ، اذ تفربل الناتج لتبقى على الأصلح

هذه هى الحالات التى يقع تحت سلطانها انسان القرن العشرين ، فهل من سبيل إلى انقائها ؟ يقول لورد « دوسن » إن انقاءها مرهون على شرطين : الأول نشر المعلومات التى تتعلق بضبط النسل : والثانى التعقير الاختيارى . أما الشرط الأول ، وهو شرط قد تحقق منه شطر عظيم بذيوع الوسائل التى تضبط النسل ، فان عليه اعتراضاً ذا خطر عظيم ، هو أن الذين يجنحون إلى ضبط النسل إنما هم أولئك الذين تعتبرهم زهرة المجتمع الانسانى من أصحاب العقول الراجحة والمزايا الفذة ، فى حين أن غيرهم من الطبقات الدنيا والطالحين يتناسلون جهد ما تبلغ استطاعتهم . وفى ذلك مشكل هو بذاته أنكى من حماية غير القادرين على البقاء بالطرق الاصطناعية . فان قلة نسل الأولين وازدياد نسل الآخرين مفسدة سوف تسرع ببعض الجماعات إلى درجة من الانحطاط